أصداء عربية
في قصة إسبانية

● تمهيد :

كتب ثرفانتس (١٥٤٧ ـ ١٦١٦) قمة الأدب الأسبانى فى مختلف عصوره، الرواية والقصة بكل أنواعها، ولكن روايته الخالدة دون كيخوته دى لامنتشا حجبت ماعداها.

وقد تناول العبقرى الإسبانى بالدراسة الواسعة.، الإسبانيون والأوربيون والأمريكيون على السواء: تناولوا إنتاجه بالتحليل، وحياته بالمتابعة، ولكن العنصر العربى فى أدبه لمآ يدرس، لم يدرسه الإسبان لأنهم يأبون إلآ أن يظل ثرفانتس أديبا إسبانيا خالصا، متجاهلين الأسس العربية التى قامت عليها نهضة الأدب الاسبانى فى عصره الذهبى، ولم يدرسه الأوربيون والأمريكيون لأنهم خلال ما مرّ من الزمن، فى الفترة التى ازدهرت فيها دراسات ثرفانتس، كان واقع العرب مريضا مرّا، فلم يكن هؤلاء ينظرون إليهم إلآ من خلال حقدهم المغرض، متجاهلين هذا الأثر الواضح فى شموخ واستعلاء!

obeikandi.com

وإذ أنا أتابع أدب ثرفانتس فى أقاصيصه القصيرة، وقعت عينى على واحدة منها عنوانها «ربح الأصدقاء»، أحسست للوهلة الأولى أنها ليست غريبة علىّ، وعندما رجعت بذاكرتى إلى الوراء البعيد، تذكرت أنها شبيهة بواحدة من قطع الإملاء التى أملاها علينا «سيدنا» فى كتاب القرية منذ ربع قرن، مع اختلاف بسيط فى وقائعها فبطل القصة العربية شيخ محنك، وأحداثها جرت إبان فتح الأندلس، وأما بطل قصة ثرفانتس فسيدة، ومسرح أحداثها «لشبونة»، وكانت ذات يوم ثغرا عربيا مزدهرا.

ولست أدرى من أى مرجع عربى، أو كتاب محدث نقل فقيه القرية القصة العربية، التى أملاها علينا، كما لا أدرى إذا كان ثرفانتس قد التقط القصة العربية — وليس ثمة شك فى أنه التقطها — من أفواه عامة الإسبان، وكانت أقاصيص الفروسية العربية وحكاياتها ملء وجدانهم وهو ما إليه أميل، أم أنه التقطها من العرب إبان اقامته فى الجزائر، وقد عاش فيها زمنا، وكانت الجزائر واحدة من أولى الأقطار العربية التى اتخذها المطرودون من عرب الأندلس وجهة لهم بعد إخراجهم من إسبانيا. وقصة ثرفانتس بعد ذلك، معروضة فى ترجمة أمينة دقيقة، لا تصرف فيها، لأن كثيرا من جملها، هى تعابير عربية أصيلة، كما أنها تحت يدى من قد تواتيهم الفرصة، ليقارنوها مع النص العربى الأصيل، ويدرسوا ما بين النصين من أوجه الاتفاق أو الاختلاف، ومبعثه ومراميه.

• القصة العربية :

واضح أن ما سأورده من القصة العربية ليس هو نصها الكامل، وإنما بقايا شاحبة لذكريات بعيدة، لصقت فى ذاكرتى منذ الطفولة، وقد محت أحداث الزمن منها كثيرا، وبقى منها القليل، ولكنى أكاد أزعم لنفسى وأنا مطمئن، أن أغلب الجمل التى سأوردها، هى مما جاء فى نص القصة العربية بلا تحوير، فقد كان لها إذ ذاك فى حنايا عقلى رنين أعجاب، جعلنى أحفظها عن ظهر قلب، كما أن روايتى لها أوردت خطوطها الرئيسية كاملة، ولمن شاء بعد ذلك، وأنا بعيد عن مكتبتى وعن أية مكتبة عربية أخرى، أن يراجع نصها فيما يتوهم من مظان الأدب العربى فى العصر الوسيط.

• • •

«يحكى أنه فى إبان فتح الأندلس، كان شيخ عربى يتفيأ ظلال أشجار البرتقال فى بستان له، حينما اقتحم عليه داره شاب هلع يصيح : عائذ بك من مطاردة، مستجير بك من ثأر، فأمّنه الشيخ على نفسه، واستمع لقصته :

«قال الشاب : إنه التقى فى طرف المدينة مع شاب آخر، وحدثت بينهما ملاحاة، فما كان منه إلاّ أن استل سيفه وقضى عليه، ثم تسلل هاربا قبل أن تفتك به الجموع التى أقبلت لترى الحادث!

فصحبه الشيخ إلى حجرة آمنة، وهدأ من روعه، وأمّنه على حياته وطلب إليه أن يبقى فيها، حتى إذا ما أقبل الليل استطاع أن يغادر المدينة تحت جنح الظلام آمنا!

ولم يمض من الزمن غير أقله، حتى أقبل أربعة رجال يحملون بين أيديهم شابا قتيلا مضرجا في دمائه، كان ابن الشيخ الهرم صاحب البستان، وقال حاملوه إنّ شابا غريبا عن المدينة، التحم معه، وأنهى حياته بسيفه، فلم يخالج الأب المكلوم شك، فى أن المستجير به، هو الذى أودى بحياة وحيده، ولكنه كظم غيظه، واستجمع صبره، وأهّل ابنه للدفن، وتلقى عزاء الأقارب وسلوان الأصدقاء، دون أن يفقد حلمه أو يضعف إيمانه، فلما جن الليل تقدم إلى الشاب فى ثقة المطمئن إلى قضاء الله، الراضي بقدره، وقال له: يا هذا!.. لقد مزقت قلبى، وفتت كبدى، وأوهنت منى العزم وأضعفت القوى، فقتلت وحيدى، تكأتى فى شيخوختى، وسلوتى فى وحدتى، وامتداد حياتى إذا ما فجأنى الموت، ولكنى لن أنكث وعدا قطعته، ولن أتراجع فى أمان منحته، وحسبك ــ عافاك الله! ــ أن تفارق دارى، وأن تختفى عن ناظرى، وأن تغتنم الظلام، لكى تفارق المدينة آمنا، وإليك هذه الدراهم، تعينك في رحّلتك، وبها تقيم أود حياتك زمنا، إذا ما افتقدت العمل أو القرى أو المضيف!

• القصة الإسبانية:

حدث ذلك في الليلة الأولى التي دخلت فيها لشبونة، كنت أتجول في أحد شوارعها الرئيسية، باحثا عن فندق أفضل من الذى نزلت فيه، مارا بمكان ضيق غير نظيف، فاصطدمت مع برتغالى ملثم، أزاحنى عنه في شدة قوية، حتى أننى استلقيت أرضا، فأثار هذا الاعتداء غضبى، فتركت مهندى يثأر لى: سللت حسامى، وانتضى البرتغالى سيفه في شجاعة أنيقة وجرأة، وكانت ليلة عمياء، وقدر أكثر عمى، وعلى هدى من حظى الأفضل وبدون أن أعرف إلى أين، وجه القدر طرف سيفى إلى عين خصمى، فوقع على ظهره تاركا جسده على الأرض، بينما ذهبت روحه إلى حيث يعلم الله. وبدا لى الخوف مما صنعت فوجمت، ورأيت نجاتى في الهروب، أردت ذلك، ولكننى ما عرفت إلى أين، إلا أن همسات الناس الذين بدوا، وكأنهم على وشك الحضور وضعت في قدمى أجنحة، وفى خطوات تائهة عدت إلى أول الشارع، باحثا عن مكان أختفى فيه، أو ركن أنظف فيه سيفى، حتى إذا ما أصابتنى العدالة، لا تجدنى مع شواهد تشير إلى جرمى.

وإذ أنا أجرى دوخان من الخوف، رأيت نارا في بيت كبير، فألقيت بنفسى فيه دون أن أعرف لأى هدف، وجدت بهوا منخفضا مفتوحا، رائع التجميل ومددت خطوى فدخلت قاعة أخرى، كانت هى أيضا جميلة الزخرف ثم قادنى الضوء الذى كان يبدو في غرفة

ثالثة إلى حيث وجدت سيدة مستلقية على فراش وثير، فاعتدلت جالسة فى قلق، وسألتنى من أنا ؟ وعم أبحث ؟ وإلى أين أذهب ؟ وبمثل هذا الاحترام القليل أجبتها :

ــ سيدتى : على هذه الأسئلة الكثيرة لايمكننى أن أجيبك بأكثر من القول : إننى رجل غريب، ترك فيما أعتقد رجلا آخر مقتولا فى هذا الشارع، وهو أمر فيما أحسب أنا، يرجع إلى سوء حظه وتجبره أكثر مما يرجع إلىّ، فأرجوك بحق الله، وبحقك أنت، أن تنقذينى من صرامة العدالة، التى تلاحقنى فيما يبدو.

ــ أقشتالى أنت ؟

ــ لا يا سيدتى، أنا أجنبى، ومن بعيد جدا عن أرض هذا الوطن.

ــ حتى ولو كنت قشتاليا ألف مرة، فسأنقذك إذا استطعت : اصعد فوق هذا السرير، وادخل تحت البطانية، واجلس فى تجويف تجده هناك ولاتتحرك، فإذا جاءت العدالة احترمتنى، وصدقت ما أقول لها.

صنعت كما أمرتنى، رفعت البطانية، ووجدت تجويفا انحشرت فيه، وكتمت أنفاسى، ودعوت الله بأفضل ما استطعت، وإذ أنا فى هذا الكرب العظيم، دخل خادم الدار وهو يقول فيما يشبه الصياح :

سيدتى : قتلوا سيدى (دون دوارتى) وهم يحملونه إلى هنا ، لقد أمضاه سيف فأصابه فى العين اليمنى وشقها كلها ، ولا يعرف له قاتل ولا سبب الخصام ، حتى ولم يكد يسمع للسيوف صليل ، وإنما يقول غلام إنه رأى رجلا دخل هذا البيت هاربا .

وأجابت السيدة قائلة : من غير شك لابد أن يكون هو القاتل ، ولن يستطيع الإفلات ، واحسرتاه ! كم خشيت أن أرى ابنى يؤتى به ميتا ، فلم يكن ممكنا أن يرجى من سيره الغوى سوى الشر ! .

فى هذه اللحظة ، أحضر الميت أربعة رجال يحملونه على أكتافهم ، فوضعوه على الأرض بين يدى الأم الحزينة ، التى أخذت تولول فى صوت فاجع ... ياللثأر ! كيف يدفع بنفسه إلى حتفه ، ولكن الوفاء بوعدى لا يسمح لى بأن أجيبك إلى مرادك ، ومع ذلك ، فوا ألماه ! كم ضايقتنى ! .

• • •

تصوروا حال قلبى يا سادة ، وأنا أسمع صياح الأم المرزوءة ، لقد بدا لى أن وجود ولدها الميت قد وضع فى يدها ألفا من طرائق الموت لتنتقم منى ، وكان من البيّن الواضح ألاّ مفر من أن تتصورنى قاتل ولدها ، ولكن ماذا كنت أستطيع أن أفعل حينئذ سوى السكوت ، والأمل فى نفس اليأس ، وبخاصة عندما دخلت العدالة المخدع ، وسألت السيدة فى أدب : جاء بنا إلى هنا قول غلام يزعم بأن قاتل هذا السيد ، دخل هذا البيت ، فتجرأنا على الدخول .

كنت خلال ذلك أسترق السمع ، وأصغى إلى أجوبة الأم الحزينة ، التي ردت ونفسها طافحة بشجاعة كريمة ، وشفقة مسيحية :

ــ إذا كان ذلك الرجل قد دخل هذا البيت ، فإنه على الأقل لم يأت إلى هذه القاعة ، فابحثوا عنه في غيرها ، ولو أنني أضرع إلى الله ألا تجدوه ، فما أسوأ أن يعالج الموت بالموت ، وبخاصة إذا لم يكن الضر مقصودا ، فانصرفت العدالة للبحث فى بقية البيت ،وعادت إلىّ الأرواح التى كانت قد فارقتنى ثم أمرت السيدة بأن يرفعوا أمامها جثة ولدها ، وأن يكفنوه ، ثم أشارت بدفنه ، كما أمرت بأن يتركوها وحيدة ، لأنها ليست مستعدة لاستقبال الكثيرين الذين جاءوا ليقدموا لها التعازى والسلوان من الاقرباء والأصدقاء والمعارف ، وبعد ذلك دعت خادما لها ، كانت فيما يبدو أكثر من تثق فيها ، فهمست فى أذنها ببعض الكلمات ثم ودعتها ، وأمرتها بأن تغلق الباب وراءها ، فصنعت ما أمرت ، بينما جلست السيدة على السرير ، ومست البطانية ، وفيما يبدو وضعت يدها فوق قلبى ، وهو يخفق فى سرعة ، فدل ذلك على ما اعتراه من الخوف ، فلما رأت ذلك ، قالت لى فى صوت خافت مكلوم : يا رجل كائنا من كنت ، قد رأيت أنك أزلت أنفاس صدرى وأذهبت نور عينى ، وأخيرا الحياة التى كنت أرتكز عليها ، ولكنى رأيت أن ذلك حدث بدون قصدك ، فأريد أن ينتصر وعدى على انتقامى ، والوفاء بالعهد الذى قطعته لك ، بتحريرك عندما دخلت إلى هنا ، والآن عليك أن تصنع ما يلى : ضع يديك فوق وجهك ،

حتى إذا غفلت ففتحت عيني لا تضطرني إلى أن أعرفك، واخرج من هذا المخبأ واتبع خادما لي ستأتي إلى هنا، وسوف تقودك إلى الشارع وتعطي لك مائة درهم من الذهب، تيسيرا لأمرك، وأنت لست معروفا هنا، وما فيك من دليل ينم عليك، واحتفظ برباطة جأشك، لأن الإفراط في القلق يدل عادة على الجرم!

• • •

ثم جاءت الخادم فخرجت من وراء القماش مغطيا وجهي بيدي، وانحنيت لها شاكرا، وقبلت قدميها عدة مرات، ثم قفوت أثر الخادم التي أخذتني من ذراعي توا صامتة، ومن باب خلفي للبستان، وتحت جنح أستار الظلام، أفضت بي إلى الشارع، ولما وجدت نفسي هناك، كان أول همي أن أغسل سيفي، وفي خطى مطمئنة انتهيت عفوا إلى شارع رئيسي، فاهتديت إلى فندقي، واقتحمته كأن لم يحدث لي خير ولا شر، ثم قص لي صاحب الفندق مصيبة السيد القتيل من قريب، وبالغ في تمجيد أسرته، وفي إطراء طباعه الجريئة، التي ربما تكون قد أوجدت له عدوا خفيا قاده إلى مثل هذه النهاية.

قضيت تلك الليلة في حمد الله على آلائه، وفي اطراء تلك السيدة الشجاعة، العجيبة الأخلاق، الصلدة بالصبر، المنقطعة النظير، المسماة «دنيا يعقوبة»، ثم غدوت إلى النهر مبكرا، فوجدت فيه زورقا حافلا بأناس، يريدون أن ينتقلوا إلى سفينة كبيرة راسية في «سان

جان»، على وشك أن ترحل نحو جزائر الهند الشرقية، فعدت إلى فندقي، وبعت بغلتي لصاحبها، وأغلقت قبضة يدى على كل ما حدث، وعدت إلى النهر والزورق، وإذا بى فى اليوم التالى خارج المرسى، على ظهر السفينة الكبيرة أشرعتها مرسلة للريح، سالكة طريقها نحو ما كانت تريد..!

مدريد

مجلة المجلة — مارس ١٩٦٤

openkandl.com